القرع من مواقف العرصات

قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

هذه السورة اسمها سورة القارعة والذي يظهر والله أعلم بالصواب أن كل اسم من أسماء القيامة في الغالب يختص بموقف من مواقف العرصات، وليس في القيامة كلها من أولها إلى آخرها.

أما سبب تسميتها بالقارعة فمن خلال السياق: فكل الأحداث في السورة تكون بعد القرع الحاصل في وقت القارعة، والقرع يورث صوتا هائلا، ومن الأصوات الهائلة أصوات الانفجارات التي تذهل معها العقول وينفجر الناس باكين خائفين.

وخذ على سبيل المثال: أصوات صفارات الإنذار، وتفجير الصواريخ والطائرات المسيرة، والحوادث العنيفة ونحوها، ستجدها مخيفة وشديدة وتورث فزعًا، وما يراه أهل البلاد المنكوبة من تفجيرات وأصوات هائلة يجعلهم يهربون ويهيمون على وجوههم بدون تفكير ولا ترتيب، ويصطدم

بعضهم ببعض، ولذلك الأذن أمرها خطير وما يحصل من الهلع بالسمع أشد بكثير مما يحصل بالبصر.

وللفائدة فلفظ «قرع» مخيف بمجرده فكيف إذا ارتبط بالقيامة، وكيف لو كرره وبينه؛ فقد أطلق القرع على الصوت الذي يتأثر به السامع تأثر خوف أو اتعاظ، ولما كانت النفس البشرية شديدة الميل الى الانفلات، والتحلل والفوضى، ولولا قرعها بنصائح الآخرة، وما فيها من أهوال تجعل الولدان شيبا، ولذلك جاءت آيات الذكر شديدة الإنذار بالغة التحذير؛ لعلنا نعقل أن نسمع، ونوقظ عقولنا من السبات العميق.

وفي العرصات يحصل قرع من نوع خاص أشد من الدنيا بكثير، فناسب أن يبدأ بهذا القرع، وكونه في عرصات القيامة كافٍ في بيان شدته، وكان يكفي أن يقول: ﴿الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ فيبين شدتها؛ لكونه بدأ بداية مذهلة فقال القارعة، وهذا بحد ذاته مخيف، ولكن لأن الحال أشد مما يتصوره العقل أبهمه، فكأن الله خالق القرع والصوت الناتج منه فيسأل عنه، فكيف بالمستمع للقرآن سيكون عنده الأمر مهولاً، بل لا يملك الناس تخيله وشدته، ثم اسرح بعقلك في هذا القرع ستجد رجفة القلب وقشعريرته، ثم أطلق: **السؤال الثاني:** (وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ) **أي وأيّ شيء يعرّفك بها، كأنه لا شيء يحيط بها فمهما تخيلت أمرها وحدست شأنها فهي أعظم من تقديرك.**

والعجيب أن السؤال متوجه للنبي ﷺ وليس لأمته، ﴿وَما أَدْرَاكَ﴾ وما أعلمك يا أكمل الرسل مَا الْقَارِعَةُ العجيبة الشأن الفظيعة العظيمة الهائلة المهولة، فإذا ضخمت على النبي ﷺ فكيف بي وبك.

فيا ويلنا من قرع القارعة علينا ومن صوت سيصدر في العرصات لا يتصوره حتى أكمل الأنبياء.

لماذا عبّر اللهُ تعالى بالفراش؟

الجواب والله أعلم: لأنها حيواناتٌ لا تكون إلا في الليل، يموجُ بعضُها ببعض لا تدري أين تتوجه؟

فإذا أُوقِدَ لها نارٌ تهافتت إليها لضعفِ إدراكها، فهذه حالُ الناسِ أهلِ العقول، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي». رواه مسلم. **وإنا لله وإنا إليه راجعون.**

أيها المسلمون اختار نوعين (الناس والجبال)، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾. **للتنبيه:** على ما هو من أشباهها، فالناس يلحق بهم البقية من الملائكة والجن والحيوانات والوحوش، أما الجبال فتلحق بها الكواكب والنجوم والأرض والبحار ونحوها ولذلك ليست السورة في هذين النوعين فقط، فإذا كانت

الجبال على ما هي عليه من الشدة والصلابة ﴿كالعهن﴾ هذه الجبال الراسيات تَكونُ مِثْلَ الصوفِ، فإنه يكونُ خَفِيفاً يَتطايَرُ مَعَ أدْنَى رِيح، وفي الآية الأُخْرى، ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً﴾. وَذَكَرَ اللهُ الصُّوفَ في أَضْعَفِ أَحْوالِه، عندما يكون مَنْفوشاً، لأن الصُّوفَ قد يكونُ مَضْغوطاً على بَعْضِهِ ومُتَماسِكاً، فكان الأولى أن الخفيف يرتفع، والثقيل ينزل كما في الدنيا، وكون أحكام الدنيا ليست كأحكام الآخرة ناسب أن يبين أن الثقيل يرتفع ويرتقي، والخفيف يهوي وينزل، وهذا شيء عجيب.

عباد الله تمر السورة بأربعة مراحل:

المرحلة الأولى: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾. تقرع الأسماع وتقرع الأجساد وتبهر العقول.

ثم ننتقل للمرحلة الثانية: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ- وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾. وهذا على مستوى الكائنات.

المرحلة الثالثة: يتمايز الناس في الميزان: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾. وكأن الميزان لحظة المفارقات بين الناس وقبلها الناس مختلطون، ثم تُنصبُ الموازين، وينقسم الناسُ قسمين: سعداءُ ثقلت موازينهم، وأشقياءُ خفت موازينهم.

المرحلة الرابعة: ثمرة الميزان: فإما في عيشة راضية أو في نار حامية.

**** ****

الخطبة الثانية

نتائج هذا الصوت الهائل: يكون الناس كالفراش المبثوث، شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار، والفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة؛ بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، يدل هذا على أنهم إذا بعثوا فزعوا، واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة، وبالجملة فالله سبحانه وتعالى شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، وبالفراش المبثوث؛ لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش. كما أن الجبال لتفتتها وتفرق أجزائها لم يبق لها إلا صورة الصوف المنفوش فلا تلبث أن تذهب وتتطاير ﴿فأمه هاوية﴾ مسكنه النار، سمي المسكن لأن الأصل في السكون إلى الأمهات، والهاوية اسم من أسماء جهنم، وهو المهواة لا يدرك قعرها، ﴿فأمه هاوية﴾ أراد أم رأسه منحدرة منكوسة، يعني أنهم يهوون في النار على رءوسهم، و ﴿هاوية﴾ أي نار نازلة سافلة جداً فهو بحيث لا يزال يهوي فيها نازلاً، وهو في عيشة ساخطة.

ومن باب الفائدة: أن النار الحامية التي لمن خف ميزانه لما عرف فيها من الخفة والطيش، ولذلك سماها حامية، والعيشة الراضية ثقيلة وعميقة وكبيرة فناسب أن تكون لمن ثقل ميزانه.

وفي خاتمة سورة القارعة: عليك يا طالب الحسنات أن ترغب في سرك ونجواك وإياك إياك والأماني وطول الأمل، فإنها توقعك في فتنة عظيمة وبلية شديدة لا نجاة لك منها ولا خلاص لك عنها وعما يترتب عليها أبدا.

خلصنا الله وعموم عباده من غوائل الدنيا وما فيها. وبعدَ هذه المشاهد التي صورَتها لنا سورةُ القارعة، وهي جزءٌ يسيرٌ مما صورَّه لنا القرآنُ الكريم عن مشاهدِ ذلك اليومِ العظيمِ، أيبقى لمتأملٍ ركضٌ خلفَ سرابِ الدنيا؟ أم يُتَصور من مسلمٍ أن يترك فريضةً أوَ بعد هذا يقطع مسلمٌ رحِمَه؟ أو يلهث شابٌ خلف شهواته؟

فكيف لمؤمنٍ أن يعصي ربَّه وهو يسمعُ ويقرأُ مثلَ هذه المواعظ، لكنه الرَّانُ الذي يغشى القلوبَ؟ والذي سببُه الذنوب ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

فيا عبد الله كن من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا، فان الوليد يتبع الأم، الدنيا لا تساوي نقل أقدامك اليها، فكيف تعدو خلفها؟

الدنيا مجاز والآخرة وطن، والأوطار إنما تطلب من الأوطان.

عباد الله: وأكثروا من الصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير، فقد أمركم الله بذلك فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم أذل الكفر والكافرين، اللهم أبرم لأمة الإسلام أمرًا رشدًا، يُعز فيه أهل طاعتك، ويُهْدى فيه أهل معصيتك، ويُؤمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر، يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام. اللهم اغفر لنا وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، اللهم أصلح أحوال المسلمين في كل مكان يا ذا الجلال والإكرام، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر، نعوذ بك اللهم من زوال نعمتك، وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك. اللهم وفق ولاة أمور المسلمين لتحكيم شرعه، واجعلهم رحمةً لرعاياهم، ووفق إمامنا وولي أمرنا لما تحب وترضى، وقرِّب منه البطانة الصالحة الناصحة التي تدله على الخير وتعينه عليه، تُذكره إذا نسي، وتُعينه إذا ذكر، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام. ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النار، ربنا اغفر لنا

ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوفٌ رحيم.